روابط الطبيعة والتاريخ فى وادى النيل

حديث الوحدة فى وادى النيل حديث يمكن أن يطول ، دون أن يمل الكتابة فيه الكاتبون ، أو أن يمل القراءة فيه القارئون . وهو مما يمكن أن يتناوله الباحثون من نواح وجوانب متعددة ، منها الناحية القومية الخالصة ، ومنها الناحية السياسية العامة ؛ ثم منها الناحية الدراسية التى تبحث عن الوحدة فتردها إلى أصولها فى البيئة وفى التاريخ ، وتكشف عن مقوماتها فى الطبيعة وفى حياة الناس . وقد تناول الوحدة فى المدة الأخيرة كثير من الكتاب فى الصحف والمجلات ، وفى بعض الكتب والنشرات ؛ وعمد هؤلاء الكتاب فى أغلب الأحوال إلى استعراض الوحدة ومظاهرها العامة أو إلى إبراز ضرورتها والحاجة إليها بالنسبة لأهل وادى النيل فى الجنوب وفى الشمال. ولكن هناك ناحية تستحق البحث والتمحيص وتستأهل الدراسة والعرض ؛ تلك التى تمس الوحدة من حيث أساسها الطبيعى الذى ترتكن إليه ، ومن حيث طابعها التاريخى الذى تتسم به . فالوحدة فى وادى النيل أمر طبيعى، قضت به ظروف البيئة منذ بدأ الانسان يستقر على جوانب النيل ؛ وهى إلى جانب ذلك قد سارت مع الزمن ، وخلدت روحها خلود التاريخ ؛ وماذلك كله إلا لأنها من نتاج بيئة فرضت على جماعات البشر أن تعيش متحدة على ضفاف النيل ، وأن تعمل متكافئة متساندة متكاملة ، وأن تستجيب لدوافع البيئة فى الوحدة على نحو لا نظير لمثله فى أى إقليم آخر من أقاليم الأرض . ولعلنا أن نستطيع فى هذا المقال أن نلم بطرف أو أطراف قليلة من مقومات هذه البيئة النيلية ، ومن مظاهر ماترتب عليها من وحدة بقيت لأرض النيل على مر العصور ، وستبقى — إن صدقت فراسة العلم ، وهى صادقة لامحالة — ماعاشت سلالات البشر على ضفاف النيل[1] .

---

(١) للكاتب مقال آخر تتناول فيه وحدة وادى النيل من جوانب أخرى غير ما يتناوله اليوم . أنظر « الكاتب المصرى » فبراير ١٩٤٦ .

وقد ينبغى أن نبدأ حديث الوحدة ونشأتها واستمرارها فى وادى النيل بأن نعرض لبعض المصطلحات والتعريفات الجغرافية التى جرت بها أقلام بعض الكتاب فى غير كفاية من الدقة ، والتى ترتب على عدم العناية بتكييفها وتحديد دلالاتها غير قليل من سوء الفهم . . فالكتاب كثيراً مايخلطون بين لفظى « حوض النيل » و « وادى النيل » ، على حين يفرق الجغرافيون بينهما تفريقاً ظاهراً ؛ فهم يقصدون بالحوض مجموعة الأراضى التى تغذى النهر بمياه الأمطار التى تسقط عليها ، وتلك التى يغذيها النهر بمياهه الجارية . وإذا طبقت هذه القاعدة على نهر النيل فان حوضه يشمل الحبشة وهضبة البحيرات ، وهما تغذيانه بمياه الأمطار ، كما تشمل السودان ومصر ، وهما لا تغذيانه إلا بقدر محدود ولكنهما تتغذيان بمائه وتعتمدان عليه. أما وادى النيل فيقصد به ، فى عرف الجغرافيين ، تلك الجهات التى ترتبط فيها حياة السكان إرتباطاً مباشراً وقويا بل حيويا بمياه النهر ؛ ويتخذ الارتباط صوراً وأشكالا متباينة ؛ فقد يتمثل فى أن السكان يرتوون بمياه النهر ويسقون منه مزارعهم لانعدام المطر أو قلة كفايته فى فصل من السنة أو طوال العام ؛ وقد يتمثل فى اعتماد السكان ، إلى حد قريب أو بعيد ، على صيد الأسماك وحيوان الماء من مجرى النهر ؛ كما قد يتمثل فى استخدام النهر كطريق للملاحة وشريان للاتصال ، إلى غير ذلك من مصالح الحياة وحاجاتها المباشرة . وإذا نحن طبقنا هذه القاعدة على نهر النيل وجدنا الحبشة تخرج من واديه وإن دخلت فى حوضه . فأهالى الحبشة لا يعتمدون على النهر فى الاستقاء أو فى الرى أو صيد النهر أو الملاحة ؛ وإنما تتجمع جداول النهر وتجرى روافده فوق أرض الحبشة دون أن تمس حياة السكان فى شئ ظاهر ، والمياه تنحدر فيها سريعة وتجرى متدفقة فى فصل الأمطار ، ثم تكاد ألا يكون بها ماء فى فصل الجفاف . ولو أن تلك الروافد العليا انعدمت أو لم توجد فى الحبشة إطلاقاً ماتغير مجرى الحياة كثيراً فى تلك البلاد . وغاية ماحدث أن جريان الروافد الحبشية قد زاد من قيمة تلك الهضبة بالنسبة لبلاد أخرى تقع داخل نطاق « وادى النيل » . وكذلك الحال فى الهضبة الاستوائية وإن اختلفت عن الحبشة بعض الشئ . ففوق الهضبة الاستوائية بحيرات متسعة ، وفيها بعض المجارى الصالحة للملاحة أو لصيد الأسماك ، وفى بعض الجهات تتصل حياة

السكان إلى حد ما بالمسطحات المائية والأنهر الجارية ؛ ولكن الحال هنا تختلف اختلافاً ظاهراً عما يكون عليه الارتباط بالنهر فى أرض السودان ومصر حيث يعتمد على النهر فى الاستقاء فى فصل معين من السنة أو طوال العام ، ويعتمد عليه فى الرى والزراعة إلا فى جهات خاصة من السودان الجنوبى فى موسم الأمطار ، ويعتمد عليه فى صيد النهر فى الجهات التى تقل فيها الزراعة كما هى الحال فى أراضى منطقة السدود وبحر الجبل والغزال ، كما يعتمد عليه فى الملاحة والاتصال وربط أجزاء الوادى بعضها ببعض فى مصر والسودان على حد سواء . ولو أن النيل لم يجر فى مصر والسودان ماقامت حضارة ولا مدنية فى سهولها التى يزداد بها الجفاف وتسود الصحارى كلما اتجهنا نحو الشمال . لذلك كله فان لفظ « وادى النيل » إنما يقصد به مصر والسودان مع امتداد يسير نحو الهضبة الاستوائية .

هذا التعريف الجغرافى للفظى الحوض والوادى ضرورى لتحديد ماتقصد « بوحدة وادى النيل » . فلقد حاول بعض الناس عن جهالة حيناً وعن قصد سيئ حيناً آخر أن يشوهوا هذه الوحدة ؛ فقالوا إن المطالبين بها لابد أن ينتهى بهم الأمر إلى إدخال الحبشة ضمن نطاقها ؛ وهذا ما لا يوائم الواقع ما دمنا نطالب بوحدة الوادى دون وحده الحوض . والحق أن المطالبة بوحدة الحوض لا تستقيم ومقتضيات الطبيعة التى وحدت بين مصر والسودان فى الاعتماد على النهر فى حياتهما الماضية وحياتهما الحاضرة والمستقبلة ، والتى فرقت بين الحبشة وبين ما دونها من أرض الوادى فى أن الحبشة لا تعتمد على النهر وإن كانت تغذيه . ولقد كانت استجابة أبناء الوادى فى مصر والسودان لدوافع الوحدة السياسية خلال تاريخهم الطويل مقصورة على واديهم فى نطاقه الطبيعى ، أما الحبشة فقد رد أبناء الوادى إليها الجميل فمدوا إليها يد التجارة والثقافة فى عصر قدماء المصريين أيام كانت الحبشة تؤلف جزءاً من بلاد بنت ، ثم مدوا إليها صلاتهم الروحية فى العهد المسيحى ، عندما انتشرت ثقافة المسيح عليه السلام وديانته من مصر إلى بلاد الحبشة عن طريق البحر الأحمر وربما كانت أيضاً عن طريق وادى النيل والنوبة العليا . ولكن هذه الصلات جميعاً من تجارية وثقافية وروحية بين مصر والنوبة من جهة وبين الحبشة من جهة أخرى لم تنته فى يوم من الأيام إلى صلات سياسية

أو وحدة شعبية أو قومية ؛ لأن الطبيعة لم تكن تستلزم ذلك ، والحاجة لم تكن تمليه لا على « أبناء الوادى » ولا على « أبناء الهضبة » .

وقد كانت الحال غير ذلك فيما يختص بالسودان وصلاته بمصر . فما كانت مصر ولا السودان إلا شطرين متكاملين من إقليم واحد ترتبط حياته بنفس المصدر ويستقى روحه من نفس الينبوع . ولذلك فان الوحدة الحضارية وما تمثلت فيه من صلات تجارية ومادية ، ثم صلات ثقافية وروحية ، كان لابد أن تنتهى إلى الوحدة السياسية ؛ تلك التى بدأت فى مصر وامتدت نحو الجنوب حيناً ، وبدأت فى السودان وامتدت نحو الشمال حيناً آخر . وما دام الأمر كذلك فان وحدة وادى النيل فى الأعصر التاريخية ، وكذلك وحدته فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، إنما يقصد بها تلك الوحدة الطبيعية والدائمة بين شطرى الوادى فى الشمال والجنوب ؛ وهى وحدة تقوم على المشاركة الطبيعية فى مصدر الحياة ، وتستند إلى هذا الوادى العظيم ونهره الذى لا يمكن أن تدب حياة أو موت فى أحد شطريه إلا سرت مع مياهه إلى الشطر الآخر .

وهناك مغالطة أخرى جرت بها بعض الأقلام فى الآونة الأخيرة ؛ فكتب بعض المغرضين أننا إذا طالبنا بالوحدة فى وادى النيل فانما ينبغى أن نطالب بها أيضاً فى أحواض بعض الأنهر الأخرى ، ومنها الدانوب على سبيل المثال. ولكن القياس هنا مع الفارق الكبير جدا ، حتى بالنسبة لمن يقنعون من الجغرافيا بالبسائط أو بالقشور . فليس فى حوض الدانوب كله إقليم يعتمد على مياه النهر فى رى النبات والزراعة إلى أى حد ملحوظ ؛ وماء الدانوب لا يبعث الحياة فى جوف بادية ولا ينفخ الروح فى قلب فلاة كما يفعل ماء النيل ؛ بل إن ماء الدانوب لا يصلح حتى لمجرد الاستقاء فى حالته الطبيعية كما يصلح ماء النيل ؛ وليس لنهر الدانوب من الناحية الجغرافية الخالصة « واد » حتى يمكن أن نتحدث فيه عن الوحدة . ولئن كانت مياهه تستخدم فى الملاحة فما ذلك لربط أجزائه بعضها ببعض بقدر ما هو لاستخدام النهر كطريق للوصول من داخلية القارة إلى البحر الأسود . وفوق ذلك كله فان حوض الدانوب ينقسم من الوجهة الطبيعية إلى ثلاثة أجزاء على الأقل ؛ فقسمه الأعلى جبلى له حياته الخاصة وتاريخه الخاص الذى يتصل بقلب أوربا الجبلى ؛ وقسمه الأوسط حوض قائم بذاته يقال له حوض المجر ، وهو حوض كان فى يوم من

الأيام يمتلئ كله بالماء ، ويؤلف بحيرة كبيرة ملأتها الرواسب المتدفقة من جهات مختلفة ، وتحيط بالحوض الجبال والمرتفعات من جميع الجهات تقريباً ماعدا بعض المنافذ . وقد كان لهذا الحوض تاريخه الخاص وقوامه المستقل من حيث الطبيعة ومن حيث السكان والسلالات التى تعيش فيه ؛ بل إنه لا يزال إلى اليوم يفصل مابين صقالبة الجنوب وصقالبة الشمال ، ويفصل مابين أهل البلقان وأهل داخلية أوربا الشرقية والوسطى . ثم إن هذا الحوض ينتهى من الشرق بما يعرف بالباب الحديدى ، وهو خانق طبيعى يفصل مابين الدانوب الأوسط وسهول رومانيا حيث يجرى الدانوب الأسفل فى مناطق تختلف فى حياتها وتاريخها وسكانها عن حوض المجر إلى أبعد الحدود ؛ وهذا هو القسم الثالث فى حوض الدانوب . فهذه الحالة التى نشاهدها فى نهر الدانوب تكشف لنا كيف تختلف الطبيعة ويتغاير السكان ويتميز التاريخ وتتباين السلالات وتتنافر الثقافات ، ولا تأتلف المصالح ولا الغايات إلا فيما يتصل باستخدام النهر كوسيلة للمواصلات والنفوذ إلى بحر مغلق تقريباً كالبحر الأسود . وتلك حال لا يمكن أن يسلم جغرافى ، ولا حتى دارس عادى منصف ، بأنها تشبه من قريب أو بعيد ما نشاهده فى وادى النيل .

من هذه التعاريف والمقارنات نخرج بأننا إذ نتحدث عن الوحدة فى وادى النيل فانما نتحدث عن وحدة طبيعية ، قضت بها ظروف البيئة ذاتها ، ولاسبيل إلى جحودها أو المكابرة فيها ؛ وإذا نحن حاولنا ذلك فلن نغير من الواقع شيئاً ولن ننال الحقيقة بشئ . فالله الذى خلق فأبدع قد رتب الأمور على أن ينبنى بعضها على بعض ، وأجرى النيل على أن تتصل فيه أجزاء الوادى بعضها ببعض . وليس للانسان إلا أن يسعى فى ربوع هذه الوحدة القائمة ، والتى يشاء الله ويأبى إلا أن تكون دائمة مادام نهر النيل .

وفى أرض وادى النيل ، أو فى أجزائه السفلى على الأقل ، بدأت جماعات البشر — لأول مرة فى تاريخ الانسانية — تتعلم كيف تعيش متحدة ، وكيف تعمل متكافئة . فهذا النهر العظيم كان يأتى بالفيضان فى كل سنة ، فيغمر الأرض ويعدها للزراعة . ولكن الاستفادة من المياه فى الرى كانت لا تتم ، ولا يمكن أن تتيسر ، إلا إذا ضبط الجريان ، وقسم الوادى إلى حياض تحدها الجسور ، وتجرى بينها الترع والقنوات ، تحمل الماء من النهر إلى الحوض ، ثم تعود فترده

من الحوض إلى النهر بعد أن يكون قد أرسب ما فيه من طمى يغذى تربة الحوض ويعدها للزراعة . وهذا العمل الهندسى كان يقتضى فى حد ذاته أن توحد جهود الجماعة وأن تنظم ، حتى يمكن التحكم فى مياه النهر وتسخيرها فى صالح المجتمع . وبذلك فان نظام الزراعة الذى بدأ فى مصر قبل أن يبزغ فجر التاريخ قد علّم الناس الوحدة والتضامن الاجتماعى ، كما علمهم حسن النظام وحب التكافل . وفوق ذلك فان فيضان النهر نفسه كان مصدر خطر مشترك بالنسبة للسكان جميعاً سواء منهم من يعملون فى الزراعة ومن يشتغلون بغيرها من حرف الحياة . فتضافرت جموعهم ولطمت حشودهم واتحدت سواعدهم فى إقامة الجسور الكبرى على ضفاف النهر ، وفى حراستها إبان ارتفاع مياهه ، ثم فى إقامة كومات التراب العالية لتقام عليها القرى فوق مستوى الفيضان . وبذلك كله كان وادى النيل الأدنى مدرسة طبيعية هائلة تعلم فيها الانسان أن يعيش متكاتفاً مع أخيه الانسان ، وتعلم كيف يخدم الجماعة ويستجيب لدوافع النظام فيها ؛ فنشأت الحكومات محلية أولا ، ثم نشأت إقليمية فى الوجهين القبلى والبحرى بعد ذلك ، ثم اتحد الوجهان فى مرحلة لاحقة ؛ حتى إذا ما تم ذلك سرت روح الوحدة مع وادى النيل ومياه النهر نحو الجنوب ، كما يسرى الدم فى العروق والشرايين . وتخطت الوحدة إقليم النوبة الشمالية، وهو إقليم صعوبة يضيق فيه النهر ولا تتيسر الزراعة والاستقرار ، حتى بلغت إقليم دنقلا فاستقرت فيه استقرارها فى مصر ذاتها سواء بسواء . فظهرت هناك مدنية لم يكن غريباً ولا مستغرباً أن تشبه المدنية المصرية أو المدنية النيلية الشمالية فى كثير جدا من الأشياء ؛ لأنها كانت مثلها من ثمار ذلك النهرالعظيم. وامتدت اتصالات أبناء الوادى من مصر فى أول الأمر ، ثم من مصر ودنقلا بعد ذلك ، حتى شملت الوادى فى وسط السودان وجنوبه ، وانتشرت بعض معالم الحضارة والمدنية الشمالية إلى أطراف الجنوب .

ومع ذلك فلم يكن عهد الفراعنة أول عهد اتصلت فيه روابط الحضارة والتجارة والمدنية والثقافة بين أدنى النيل وأعلاه . وإنما سبق ذلك عهد طويل يعرف بعصر ماقبل التاريخ كانت الحضارة فيه لا تزال فى دور التكوين. ويقال إن معالم كثيرة من مدنية مصر الأولى أتت فى الأصل من ناحية الجنوب مع هجرات القبائل الأولى من ذلك الاتجاه ؛ كما أن مصر ردت دينها —

إن صح أن يعتبر ذلك ديناً — فنفخت من روحها وأنفذت كثيراً من معالم حضارتها السابقة للتاريخ حتى بلغت أعالى النيل فى السودان الجنوبى . ولعل هذا أن يكون من وراء مانعرف اليوم من تشابه غريب بين نظام القبائل وأحكامها ومعتقداتها وعاداتها ، بل لغتها وموسيقاها ، فى بعض جهات النيل الأبيض وبحر الجبل والغزال بل الهضبة الاستوائية الشرقية ، وبين ما كان معروفاً فى مصر قبل أن يطلع التاريخ ، بل بعض ما كان معروفاً من مصر فى المراحل الأولى من العهد التاريخى .

ولقد استمر هذا الاتصال المتبادل بين مصر والسودان أو بين شطرى الوادى خلال أعصر التاريخ . وكان فى بعض الأحيان يقوم على أساس العطاء من جانب مصر والتلقى من جانب السودان ؛ كما كان يقوم أحياناً أخرى على عكس ذلك ، فتعلو يد الجنوب ويفيض على الشمال من خيره و بركته ويفيء عليه من قوته ووحدته . ولعله لا ينبغى لنا أن نجاوز العهد القديم والتاريخ القديم دون أن نشير إلى ظاهرة من تلك الظاهرات المباركة التى تعلّم فيها الجنوب عن الشمال ثم فاق الأخ المتعلم أخاه المعلم ، فوعى الدرس فى وقت نسيه فيه ابن الشمال ، واستجاب للوحدة فخرج أميره بفتحى ففتح مصر حتى أقصى الشمال ؛ ولم يقابله الشعب فى الشطر الشمالى للوادى مقابلة الغازى ، و إنما قابله مقابلة المحرر من ربقة غلبة أجنبية أو شبه أجنبية ،والمنقذ من انحلال داخلى . وفى أعقاب ذلك جاءت الأسرة الخامسة والعشرون وملوكها من دنقلا ؛ وقد حكموا الوادى فى الجنوب والشمال . فان دل ذلك على شىء فعلى أن الوحدة فى العهد القديم لم تقم بالضرورة على أساس الغلبة من جانب مصر ، و إنما كان الحاكم يأتى من أى إقليم تتركز فيه القوة ؛ ولم يجاوز توحيد دنقلا مع الشمال ما حدث قبل ذلك من توحيد الدلتا مع الصعيد . ولا يمكن أن يقال عن نفوذ قوات الوحدة من الجنوب إلى الشمال أو من الشمال إلى الجنوب فى أقاليم وطن كبير واحد ، إنها قوات فتح وغزو . ومايصدق على عهد الأسرة الخامسة والعشرين يصدق على غيره من العهود التى حاول فيها أبناء شطر من الوادى أن يمدوا وحدتهم إلى الشطر الآخر . وقد لا يزيد ما حدث من انتقال قوات الوحدة فى داخل نطاق هذا الوطن النيلى الكبير بين مصر والسودان على ما حدث من جهاد الموحدين فى أقطار وأوطان كثيرة من العالم

القديم ، وما تكرر مثله إبان توحيد كثير من الأمم فى عهدنا الذى نعيش فيه . ومع ذلك فليس لمؤرخ أن يقول عن تلك الحركات المحلية والقومية إنها حركات فتح وغزو وعدوان .

وإذا نحن انتقلنا من العهد الفرعونى وما سبقه إلى العهود اللاحقة لمسنا آثار جهود أبناء الوادى فى الوصل بين شطريه بروابط الثقافة والمدنية والحضارة مادية ومعنوية . ففى العهد المسيحى مثلا تلقت مصر ديانة المسيح عليه السلام من الشرق ، ولكنها عادت فنشرتها نحو الجنوب . وما كانت تملك بحكم الطبيعة أن تحبس لنفسها هذا النور الجديد من الفكر الدينى ؛ بل انتقلت المسيحية مع ماء النهر حتى استقرت فى إقليم دنقلا ومروى ؛ وانتشرت من النوبة فى اتجاه إرتريا ، ثم مع النيل الأزرق فى اتجاه سنار . واستمرت المسيحية هناك إلى أن جاء الاسلام ، بل حتى بعد انتشار الدين الجديد . ويقال إن الكنيسة النوبية الجنوبية بقيت على شئ من الكيان إلى القرن الخامس عشر الميلادى .

ومقدم الاسلام ذاته وانتشار العرب إلى شمال السودان ووسطه ، وتعميرهم تلك السهول المكشوفة ، إنما تقوم شاهداً آخر على ما بين أجزاء وادى النيل من صلة تاريخية وروحية مكينة . فالعرب لم يعبروا البحر الأحمر مباشرة إلى السودان ؛ والدين الجديد لم يبلغ السودان من الجزيرة العربية رأساً ، كما حدث فى حالة بعض الأقطار الأخرى . وإنما دارت قبائل العرب حول البحر الأحمر إلى برزخ السويس ، وبلغت مصر واستقرت بعض الوقت على جوانب الوادى ؛ ثم انتقلت نحو الجنوب وهاجرت على طول الوادى ؛ وكان ذلك حوالى القرن الثانى عشر الميلادى وما يليه . وبعد أن بلغ العرب أرض دنقلا انتشروا فى اتجاهات ثلاثة ؛ فذهب فريق منهم نحو شرق السودان «منطقة كسلا ، وذهب فريق آخر نحو كردفان ودارفور وما وراءهما إلى منطقة واداى وتشاد ، واندفع فريق ثالث نحو أرض الجزيرة وبلاد الفنج . ولكن الشئ المهم أن مصر كانت طريق الثقافة والعمران إلى السودان ، وأن هؤلاء العرب الذين صبغوا السودان بصبغتهم العربية الحاضرة إنما أتوا عن طريق مصر . ولم يكن فى ذلك شئ من الغرابة ؛ فقد قضت الطبيعة منذ البداءة أن يشارك السودان مصر فى كل شئ حتى فى تلقى العناصر الجنسية وتلقى الثقافة والنور من الخارج . ومصر لم تكن لتستطيع أن تحبس عن السودان ما تملك أو

ما تستعير ؛ فهو منها وهى منه ، وهما جميعاً من النيل الذى يصل ولا يقطع ويربط ولا يحل ، ويقضى بأن يسير التاريخ فى الشمال وفى الجنوب على نهج موحد لا سبيل معه إلى انفراد ولا إلى انفصال .

ومع ذلك فقد يسائل القارئ : ولماذا وقفت موجة العرب ولم ينتشر الاسلام ليغمر السودان الجنوبى بنوره ، ولو عن طريق الاحتكاك الثقافى إذا لم يكن التوسع الجنسى سهلا وميسوراً ؟ والجواب على ذلك عند أهل التاريخ ؛ فانتشار السكان انتشاراً طبيعيا لا يقوم على الغزو والفتح القاهر يتطلب قروناً طويلة ؛ كما أن انتشار الثقافة ذاتها يتطلب مثابرة ومداومة ودفعاً دائباً وتغذية دائمة ؛ ولكن موجة التوسع العربى وانتشار الاسلام عن طريق التجارة والاتصال الثقافى أصيبت بصدمة عنيفة فى الشرق الأدنى عامة وفى مصر خاصة عندما دخلت جميعاً تحت سلطان الدولة العثمانية ، فحل الأتراك محل العرب ، ودخل الشرق فى ظلمة شاملة وخبا نور المدنية بل كاد مشعل الثقافة أن ينطفئ ، فانقطعت حركة العرب من أساسها وتوقف سيل الاسلام فى منبعه ، ودخل السودان كما دخلت مصر فى دور مظلم لم يستطع معه تيار المدنية والوحدة أن يتابع سيره فى السودان إلى حوض الجبل والغزال ؛ واستمرت الحال على ذلك حتى جاء العهد الحديث .

وفى هذا العهد تجددت الحياة فى وادى النيل ، وجاء محمد على فبعث الوحدة والنهضة فى أرض مصر التى خرجت إلى المدنية وأخذت بأسبابها فى سرعة عجيبة . ولكن الشئ الطريف أن هذه النهضة المصرية لم تستطع ، وما كان لها أن تستطيع ، أن تنطوى على نفسها فى أدنى الأرض . فطبيعة الأشياء كانت تقضى دواماً بأن تسير الحياة مع النهر . وما يصيب مصر من نهضة لا بد أن يمتد إلى السودان . فذهب محمد على وذهبت معه مصر تتلمس تلك الوحدة الشاملة التى رسم الله حدودها مع حدود « وادى النيل » . ولم يسر أبناء الشمال مع النيل الأزرق والعطبرة إلى الحبشة ، وإنما ساروا مع النيل الأبيض إلى حوض الجبل والغزال ومشارف الهضبة الاستوائية ، وذلك كله طريق الحق الذى رسمته يد الله حين قضت أن ترتبط أجزاء وادى النيل ، وأن تبقى الوحدة السياسية فى حدود « الوادى » لا تتعداه إلى « الحوض » بمعناه الأوسع الأعم . والشئ الطريف أيضاً أن السودان قبل عهد محمد على كانت تعمره قبائل كثيرة متنافرة

متخاصمة ، لا تربطها حكومة مركزية موحدة ، ولا يسود أراضيها نظام إدارى موحد أو متقارب ؛ وإنما كان الانحلال السياسى قد أصاب السودان إلى حد أبعد مما أصاب مصر ذاتها أيام المماليك ؛ ولم تكن هناك حكومة ذات حجم معقول فى أى جزء من أجزائه غير أرض الفنج على النيل الأزرق وبعض جهات محدودة فى الشرق وفى الغرب . ومع ذلك كله فسرعان ما استجاب السودان لدافع الوحدة وداعيها ، كما استجابت مصر من قبل ، وانتهى الأمر بأن اتحدت أرض النيل مما أشاع النهضة فى أرجائها وأعاد للوادى بعض مجده التليد . وعندما أتم محمد على وخلفاؤه توحيد ربوع السودان مع مصر صار التاج رباط الوحدة المقدسة بين شطرى هذا الوطن العظيم ؛ بل صار رمز الوحدة ورمز النهضة فى وادى النيل من أقصاه إلى أقصاه . ومع ذلك فقد شاءت الأقدار أن يعيد التاريخ نفسه ؛ فبعد أن وصل أبناء النيل إلى مشارف خط الاستواء ، امتدت يد الشر والاستعمار إلى الشرق الأدنى من جديد ، وسقطت مصر فريسة فى يد من لا يرحم ولا يدع رحمة الله تهبط بالخير على الأرض أو تجرى بالقربى بين الناس ؛ وانقطع حبل الحياة بين الشمال والجنوب ، وخبا نور المدنية ، وكاد مشعل الثقافة ينطفئ من جديد ؛ فكانت القطيعة بين مصر والسودان ، ودخل الجنوب فى عهد من الفوضى والتقاطع يسأل عنهما أولئك الذين تسببوا فى القطيعة وشطروا الوادى شطرين ، ثم حاولوا أن يربطوا بينهما ربطاً مظهريا لا يمس الجوهر كما ينبغى أن يمس ، ولا يصل الحياة كما ينبغى أن توصل .

تلك قصة وادى النيل والحياة فى وادى النيل . قصة نهر امر الله ماءه فجرى بين الجنوب والشمال ، وهدى الله أهله فاستجابوا لنعمته فى الخير ولبوا نداءه فى الوحدة ؛ وقصة حياة اتصلت فى الشمال منذ أقدم العصور وامتدت إلى الجنوب فأخذت عنه وأعطته واتصلت بينها وبينه أسباب الأخذ وأسباب العطاء فى غير منٍّ ولا تقتير ؛ فأخرج الله للناس فى التاريخ أمة وادى النيل ، عريقة كأعرق ما تكون الأمم ، مجيدة كأمجد ماتكون الشعوب . وتلقى العالم عن هذا الوادى السعيد كيف يعيش الانسان متكاملا مع أخيه الانسان ، وكيف تتضافر الجهود فتجعل من هذا الوطن الأكمل كنانة الله فى أرضه . ولئن كان قد أتى حين ، أو أتت أحيان ، من الدهر انقطع فيها حبل التاريخ

وبدت وحدة الأمة كأنها قد قطعت أو تبددت ، فما كان ذلك إلا أمراً طارئاً موقوتاً تسبب فيه طغيان أتانا من الخارج أو انحلال أصابنا فى الداخل ؛ ولكن مصر . . . بل أستغفر الله . . . ولكن أرض النيل جميعاً كانت قادرة دائما على أن تجدد التاريخ ، قديرة دائما على أن تعيد بناء الوحدة ، تلك التى أنعم الله بها على أبناء النيل فى واديهم الخالد ؛ بل تلك التى رسمتها الطبيعة وأمر بها الله . . . وإذا كانت أرض النيل قد استطاعت أن تجدد وحدتها وأن تستعيد مجدها مرات ومرات خلال تاريخنا الحافل الطويل ، فما أحراها أن تفعل ذلك وأن تستعيده فى مستقبلنا القريب !

وما خاب منا من آمن بأن ما رسمته يد الله فلن تحموه يد الانسان وإن طغى !

سليمان حزين